دور الزوايا في الحفاظ على التراث المخطوط
زاوية كرزاز أنموذجا

د. عبيد بوداود.

أستاذ محاضر بقسم التاريخ - جامعة مصطفى اطمبولي- معسكر-

تزخر الجزائر بتراث مخطوط ضخم، وهو موزع بين عدد من المكتبات والزوايا، إلا أن أغلب هذا التراث المخطوط، هو غير معروف لدى الباحثين والجامعيين. ومما يصعب ذلك هو أنه غير مفهرس، ناهيك عن الوضعية السيئة التي يحفظ فيها هذا التراث المخطوط بسبب عدم توفر شروط الحفظ والصيانة في قاعات تجميع هذه المخطوطات، مما جعلها عرضة للتلف نتيجة تأثير عوامل الطبيعة من حرارة ورطوبة وغيرهما.

أولت الدولة الجزائرية عناية فائقة لجرد هذه المخطوطات وحفظها، والتشجيع على تحقيقها، وتعميم الفائدة في الانتفاع منها، وتعمل في هذا الميدان مجموعة من مخابر البحث تحاول التقرب من مالكي هذه المخطوطات أو المشرفين عليها بغية مساعدتهم على جمعها وفهرستها، ووضعها في أماكن تتوفر بها شروط الحفظ المعروفة من الإنارة، ودرجة الحرارة، ونسبة الرطوبة.

تعد الصحراء الجزائرية، وزواياها المتعددة من أهم مناطق الوطن التي تحتضن عددا هاما من المخطوطات، والتي هي في حاجة إلى استغلال، ونذكر على سبيل المثال: زاوية توات التي تتوفر على 400 مخطوط، ومكتبة علي بن عمر الطولقي ببسكرة على 800 مخطوط، ومكتبة الهامل ببوسعادة على 600 مخطوط، ومكتبة زاوية قصر ملوكة بأدرار على 500 مخطوط، ومكتبة الزاوية البكرية بتمنطيط على 500 مخطوط، ومكتبة الزاوية القادرية بتمنطيط على 100 مخطوط، ومكتبة الزاوية التيجانية بالأغواط على 150 مخطوط، ومكتبة الزاوية الوزانية بتوقرت على 160 مخطوط، ومكتبة الزاوية البكائية بأدرار على 150 مخطوط() ، وغيرها من زوايا الصحراء العامرة. وتبقى هذه الأرقام المقدمة أرقاما تقريبية لأن هذه الزوايا والمكتبات لم تعرف عمليات فهرسة حقيقية، كما أن وضعية المخطوطات بها تتغير بين الحين والآخر.

من بين الزوايا التي كانت تتوفر على تراث هام من المخطوطات، زاوية كرزاز الواقعة جنوب شرق مدينة بشار بما يزيد عن 300 كلم، ويشير صاحب فهرسة معلمة التراث الجزائري أنها تتوفر على 100 مخطوط(2)، إلا أنه في الحقيقة لم تعد الزاوية اليوم تحوي هذا العدد حسبما جمعناه من معلومات، فما كانت تتوفر عليه الزاوية تم إتلافه من قبل الجيش الفرنسي أثناء اقتحامه لدار الندوة(الدار البيضاء) سنة 1957 وإحراق ما فيها بما في ذلك وثائق الحالة المدنية التي كانت تتوفر عليها الزاوية، وبالتالي توارى هذا التراث الضخم. إلا أن العائلات الكرزازية تتوفر اليوم على عدد لا يستهان به من المخطوطات، وهناك محاولات لجمعها ووضعها في خزانة الزاوية بالدار البيضاء.

ولقد أثمرت هذه المحاولات على تجميع حوالي خمسة وثلاثين مخطوطا نذكر بعض عناوينها:

- فتح الباري في شرح صحيح البخاري في أربع نسخ، مصحف شريف يعود تاريخ نسخه إلى سنة 783هـ.

- الحكم العطائية في ثلاث نسخ.
- شرح الشفا على شمائل المصطفى للقاضي عياض.
- شرح تنبيه الأنام.
- كتاب صحبة المماليك.
- كفاية الطالب الرباني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني.
- كتاب في الفقه الإسلامي.
- تفسير القرآن الكريم.
- كتاب في النوازل.
- كتاب في التركات (مبتور) (3).

ولا تزال الكثير من مخطوطات المنطقة متفرقة على عدد من بيوتات البلدة، وشيوخ وأتباع الزاوية، ونأمل أن تثمر المبادرة المذكورة في تجميع العديد منها، وتمكين الباحثين من الإطلاع عليها واستغلالها.

أما عن زاوية كرزاز فقد تم تأسيسها خلال منتصف القرن العاشر الهجري (ق 16م) حوالي 953هـ أو 969هـ من قبل الشيخ سيدي أحمد بن موسى خليفة بن موسى (890- 1013هـ/1485- 1604م) الذي يتصل نسبه الصوفي بالشيخ المعروف عبد السلام بن مشيش. وكرزاز هي إحدى قرى واحات الساورة، ولقد شهر مؤسس الزاوية بالعلم والصلاح، وأسس طريقة صوفية عرفت بالطريقة الموساوية، وذلك بإذن من الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الملياني الراشدي (4). وتتوفر الزاوية اليوم على عدد كبير من الأتباع، وهي تساهم بدور فعال في أعمال البر والصلاح والتعليم والإرشاد.

ومن بين نفائس المخطوطات التي تتوفر عليها المنطقة، مخطوط المناقب المعزية (أو المعزوة) في مآثر الأشياخ الكرزازية، وهو لصاحبه محمد بن عبد الكريم الكزازي ابن شيخ الزاوية الكرزازية سيدي امحمدت 1245هـ/1829م ابن محمد بن عبد الله بن امحمد بن عبد الرحمان أبي فلجة بن امحمد ابن الشيخ العارف بالله سيدي أحمد بن موسى بن خليفة الشيخ الأول للطريقة الموسوية الكرزازية المتوفى في الزاوية الكبيرة بكرزاز عام 1012هـ/1604م.

كان المؤلف بقيد الحياة بتاريخ 17 ربيع الأول 1297هـ/1879م، وهو تاريخ الفراغ من تأليف المخطوط. ولقد حاولنا أن نجد له ترجمة في كتب التاريخ أو الطبقات أو التراجم دون طائل اللهم إلا ما ذكره ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري ت 1400هـ/1980م في كتابه إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع حسبما نقله عنه العلامة محمد حجي في كتابه موسوعة أعلام المغرب حيث يقول في وفيات عام خمسة وأربعين ومائتين وألف: " محمد بن محمد الكرزازي: وفي محرم توفي محمد ـ فتحا ـ بن محمد بن عبد الله بن محرز بن عبد الرحمان الكرزازي الشاوي، كذا بخط ابن رحمون. ثم وقفت على أن له كتاب المناقب المغربة في مآثر الأشياخ الكرزازية ..وأن ابن رحمون عده من أشياخه وأخذ عنه، والجد المهدي في تقييداته عده من أصحابه"(5).

والواقع أن ابن سودة أخطأ في الاسم الكامل لمؤلف المناقب المعزية، كما أخطأ في تاريخ وفاته، فتاريخ 1245هـ/1829م هو تاريخ وفاة والد المؤلف بينما المؤلف كان حيا بتاريخ 1297هـ/1879م وهو تاريخ الفراغ من تأليف المناقب المعزية. ثم إن ابن سودة ذكر أن المؤلف سكن شاوية المغرب أي ناحية الدار البيضاء حاليا، وربما التبس عليه الأمر مع عالم كرزازي آخر يشبه اسمه اسم صاحب المناقب المعزية، يكون قد سكن منطقة الشاوية.

أما عن موضوع التأليف فهو يتحدث عن مناقب شيوخ زاوية كرزاز بدءا من والد المؤلف سيدي امحمد بن محمد بن عبد الله المتوفى عام 1245ه/1829م إلى الشيخ سيدي أحمد بن موسى المتوفى عام 1012ه/1604م ثم منه إلى كل رجال سنده في طريقته الصوفية المعروفين كسيدي الملياني وزروق والشاذلي...إلى سيد الوجود عليه الصلاة والسلام. فالمخطوط غني بتراجم مشائخ الصوفية الكبار، وفيه من المواعظ والحكم والفوائد التاريخية لكرزاز وللزاوية وما جاورها من المناطق ما يجعله من المصادر الهامة في تاريخ المنطقة.

أما عن دوافع التأليف فيذكر عنها المؤلف في مقدمة كتابه:" أما بعد لما كانت طريق السادات الكرام المعهودة من سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام تقرب دانيها من الأنام، وتصعد به إلى مقام المعرفة والنهاية والتمام لأنهم رضي الله عنهم أسسوا قواعدهم بها وواظبوا في سرهم وجهرهم عليها لكون الذكر لا يفيد في الغالب إلا بالتلقين الثابت فعله عن سيد المرسلين، فطلب مني بعض أصدقائي أن نبين لهم هذه الطريق ونجمعها من مصنفات أهل التحقيق لكون بعض الناسخين والمؤرخين يقدمون في ذلك ويؤخرون، ويجعلون طريق الصحبة بمكان التلقين، ويعتمدون صحة ذلك من غير علم لهم به ولا يقين، فحاشاهم أن يعتمدوا الخطأ ويجعلونه للناس غلطا، وقصدنا بذلك إلحاق طريق أسلافنا بطريق المتقدمين رضي الله عنهم أجمعين ليكون من والدنا وشيخنا سيدي امحمد بن محمد بن عبد الله بن امحمد الكرزازي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الشرف والتلقين والتربية والعهود مقترنين، ونتبه على المهم من شروطها لما بلغنا من سيرهم بذكاء العقول وصحيح النقول..." (6).

إن النسخة التي نتوفر عليها، خطت بيمين السيد امحمد بن محمد المهدي بن الحاج بن محمد الرحموني، ولقد تم الفراغ منها زوال يوم الخميس 15 محرم 1360ه/1941م وذلك ببلدة كرزاز. ومالكها الأصلي هو السيد الحاج بوفلجة عبد الكريم أحد أحفاد المؤلف والقاطن بكرزاز. واعتمدت هذه النسخة على أخرى أقدم منها، نسخت بيد امحمد بن محمد بن عبد الله الكرزازي الذي فرغ منها يوم السبت 1 جمادى الثانية 1327ه/1909م وهذا الأخير اعتمد على نسخة أقدم.

بوب صاحب التأليف كتابه في ثلاثة أبواب حسبما يذكر في المقدمة: الباب الأول: في نسبهم(أي نسب شيوخ كرزاز) وما اختلف فيهم من طريقتهم، بدءا بالشيخ المذكور إلى المولى إدريس الأول، وذكر سندهم إلى الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش، مع كيفية تلقين السر وحديث عن الخرقة، وفضائل الذكر وشروطه، وفضل الصيام والطعام الحلال مع كثرة الاستطرادات الأدبية شعرا وزجلا.

الباب الثاني: في تلقينهم الذكر وزيارتهم وما يتفرع من ذلك، وهو في الحث على زيارة الأولياء ومحبتهم والتأدب معهم، والترغيب في طلب العلم الظاهر والباطن، والتأدب مع شيوخه مع استشهادات من السنة النبوية الشريفة وأقوال السلف الصالح شعرا ونثرا وزجلا.

الباب الثالث: فيما أظهره الله من الكرامات الخارقة للعادة على أيديهم، وعلى من انتسب إليهم(7). وقد جاء هذا الفصل طويلا جدا، متضمنا تراجم مطولة للشيوخ الكرزازيين ولشيوخهم في العلم والسند واحدا بعد واحد، منتهية عند الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو باب وردت فيه وفي سابقيه استطرادات كثيرة أشارت إلى معلومات في الأنساب والتراجم والسير والتاريخ والعلوم الدينية.

يتكون المخطوط الذي نتوفر عليه من 311 صفحة مرقم بالصفحات من 1 إلى 311، مكتوب بخط مغربي جيد، لا توجد به خروم أو تعقيبات، فهو واضح سهل القراءة. كما نتوفر على نسخ أخرى نشير إلى بعضها:- نسخة شيخ الزاوية الكرزازية سيدي علوي عبد الكريم بن سيدي امحمد المتوفى عام 2005. أتم

نسخها بتاريخ 7 شعبان 1410ه/5 مارس 1990م، وهي الآن عند أولاده بكرزاز. -نسخة عائلة مقدم الطريقة الكرزازية بوجدة السيد برمضاني تم الفراغ منها يوم 13 صفر 1372ه/ 1952م من قبل ناسخ مجهول.- كما توجد نسخ أخرى عند باقي عائلات مرابطي زاوية كرزاز. وفي الزاوية الزيانية القندوسية توجد صور في أقراص وعلى الورق في خزانتها، وحسبما وردنا من معلومات فإنه لا يخلو بيت من بيوت كرزاز إلا وبه نسخة من هذا المخطوط.

إن هذا التراث الضخم والمهم لا بد أن يرى النور في أقرب وقت وإلا فقدناه إلى الأبد، ولن يتأتى هذا إلا بجمع هذه المخطوطات المبعثرة والعمل على فهرستها، ووضعها في خزانات تتوفر بها شروط الحفظ، وهذا كله كمرحلة أولى، أما المرحلة الثانية والهامة، فهي الإقبال على تحقيق ودراسة ما نراه مهما، وإننا نشكو ضعفا في هذا المجال بسبب عزوف الباحثين على التحقيق، حيث جاء عند صاحب فهرست معلمة التراث الجزائري ما يلي: "ومن هنا فإنها لم تتمكن -رغم أهميتها- إلا من العناية بتحقيق وطبع ونشر مقتنيات تراثية جزائرية محدودة كميا ونوعيا، كما تشير إلى ذلك المعطيات الإحصائية التي تمكنا منها، في حدود الإمكانات المتاحة لنا، إذ رغم الاهتمام الرسمي للدولة الجزائرية بالتراث العربي الإسلامي الجزائري، فإن حصيلة الأعمال التراثية الجزائرية التي أخذت طريقها إلى عالم الطبع والنشر والتوزيع، داخل الجزائر، لم تتجاوز بضع عشرات من الأسفار والمصنفات التراثية، منذ 1962 إلى 1998، كما أن مجمل ما طبع من التراث الجزائري، داخل الجزائر أو خارجها لم يتجاوز 700 عمل في أحسن الأحوال، لما يزيد عن مائة وخمسين نسخة. ومن واقع الإحصائيات التي قمنا بإنجازها وجدنا أن نسبة ما طبع لم يتجاوز 6٪ من مجمل المؤلفات المخطوطة المتراكمة التي غطت مختلف علوم الدين والدنيا المتعارف عليها في إطار الحضارة العربية الإسلامية"(8).

إن رفع نسبة التراث الجزائري المحقق لن يتم فقط بما تقوم به مخابر البحث المتخصصة في هذا المجال، وإنما كذلك عن طريق توجيه الباحثين في رسائل الماجستير والدكتوراه إلى الإقبال على تحقيق هذا التراث والعمل على نشره حتى تتم الفائدة.

هوامش الدراسة:

1- الشيخ بشير ضيف بن أبي بكر بن البشير بن عمر الجزائري، فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث(واقع التراث الجزائري بين المعلوم والمجهول)، مراجعة وتقديم عثمان بدوي، منشورات تالة، الجزائر، ط1، 2002، ج1، ص 107- 109.

2- المرجع نفسه، ص 108.

3 استقينا هذه المعلومات من السيد علي سلوسي إمام مدرس بمسجد خالد بن الوليد بقصر كرزاز، والسيد محمد حساني رئيس الجمعية الموساوية للمحافظة على الآثار التاريخية، والسيد عبد اللاوي الكبير صيدلي بكرزاز. لقد وقفنا على هذه المخطوطات، وبعضها في وضعية سيئة.

4- الشيخ مولاي التهامي غيتاوي، الدرر النفيسة في ذكر جملة من حياة الشيخ سيدي أحمد بن موسى، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية الجزائر، 2004، ص 38.

5- محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1417ه/1996م، ج7، ص 2531.

6- مخطوط المناقب المعزية، ص 1.

7- نفس المصدر السابق، ص ص: 157- 158.

8- الشيخ بشير ضيف، المرجع السابق، ج1، ص ص 32 - 33.